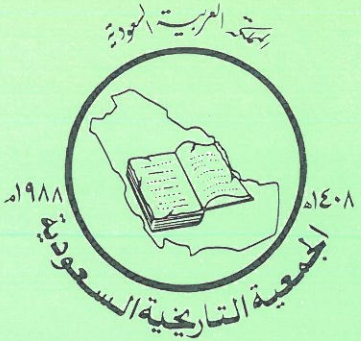

سياسة نور الدين محمود العسكرية إزاء الأرمن في قليقية

الدكتور
علي محمد عودة الغامدي

مستلة من كتاب بحوث تاريخية
(١ ــ ٢)
من إصدار الجمعية التاريخية السعودية
١٤١١هـ ــ ١٩٩١م

سياسة نور الدين محمود العسكرية
إزاء الأرمن في قيليقية
٥٦٣ ـ ٥٦٩هـ/ ١١٦٨ ـ ١١٧٤م

الدكتور علي محمد عودة الغامدي
أستاذ مساعد بقسم التاريخ الإسلامي
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى ـــ مكة المكرمة

المقدمـــة :

الحمد لله والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وبعد :

حظي نور الدين محمود بن زنكي بالكثير من الدراسات التي تناولت جهاده ضد الصليبيين وجهوده التي انصبت على إقامة جبهة إسلامية متحدة ضد الصليبيين ، وقد لاحظت أن هناك نقطة صغيرة ولكنها مهمة في سياسة نور الدين لم تحظ بالدراسة الكافية ، وهي سياسته العسكرية إزاء الأرمن في قيليقية ، فقد أدرك نور الدين أهمية هذا الجزء من الناحية العسكرية إذ أن السيطرة على قيليقية من قبل قوة معادية يشكل خطرا جسيما على قلب دولة نور الدين في حلب ، فلو حاصر بجيشه ـــ مثلا ـــ بيت المقدس فان من مقدور الأرمن في قيليقية الاغارة على ضواحي حلب الأمر الذي قد يجبره على العودة لنجدة حلب ، لذلك استمال إلى جانبه أحد أمراء الأرمن وهو مليح الأرمني الذي نجح في غزو قيليقية بمساعدة نور الدين وشن الحرب على قومه الأرمن وعلى البيزنطيين والصليبيين على حد سواء وظل مصادقا لنور الدين حتى وفاته سنة ٥٦٩هـ . أرجو أن أكون قد وفقت في إبراز هذه النقطة ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

سياسة نور الدين محمود إزاء الأرمن :

تعتبر بلاد قيليقية ذات أهمية استراتيجية بالغة . تمتد على طول ساحل البحر المتوسط جنوب جبال طوروس . وتشتمل على خليج الاسكندرونة ومدن هامة مثل طرسوس وأدنة والمصيصة وعين زربة وغيرها . وتكثر بها الجبال الوعرة ، وغالبا ما تنتهي تلك الجبال بألسنة صخرية داخل البحر لتشكل مرافىء صغيرة محمية ــ حيث اتخذ منها القراصنة في العصور القديمة ملجأ لهم ــ وفي عصر الحروب الصليبية جذبت إليها التجار الجنويين والبنادقة . وكان يوجد ببلاد قيليقية الكثير من الغابات التي تمد مصر وبلاد الشام بالأخشاب . أما الجزء الشرقي من البلاد فهو مرصع بجروف صخرية عازلة شديدة الانحدار ، ومثالية للدفاع العسكري ، وقد تكلل ذلك ببقايا قلاع قديمة تتحكم في معظم الممرات التي تصل قيليقية ببلاد الشام . ويوجد بالبلاد سهل منخفض ممتد تجري خلاله الأنهار مثل نهري سيحان وجيحان ، وهو سهل شديد الخصوبة . ومن جهة النظر العسكرية والسياسية فان السيطرة على قيليقية يعتبر حيويا لضمان أمن الطرق بين آسيا الصغرى وبلاد الشام . وقد توافر بالمداخل القيليقية الشهيرة ممرات ضيقة يمكن النفاذ منها بشكل مريح . وأحيانا كانت الطريق الوحيد من القسطينية وغرب آسيا الصغرى إلى المدن الكبرى في بلاد الشام ومصر وبلاد النهرين[١] .

كانت قيليقية تخص البيزنطيين قبل ظهور الإسلام ثم فتحها المسلمون في القرن الأول الهجري ، السابع الميلادي ، ثم احتلها ثانية الامبراطور البيزنطي نقفور فوكاس سنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م فنزح منها سكانها المسلمون ، فعين البيزنطيون على هذه المنطقة بعض الأرمن حكاما على المدن المهمة وعهدوا إليهم بقيادة الجيوش المحلية ، ولم يلبث هؤلاء الحكام أن اتخذوا الوضع الوراثي . ولما فتح السلاجقة هضبة أرمينية سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م غادرت أعداد كبيرة من الأرمن موطنها الأصلي وهاجرت إلى كبادوقيا في آسيا الصغرى وإلى منطقة قيليقية وأعالي الفرات وشمال الشام[٢] .

وعند مجيء الحملة الصليبية الأولى كان الأرمن يسيطرون على بعض المدن المهمة في أعالي الفرات ومعظم مدن قيليقية فقد استغل ثوروس الكربلاط الأرمني

فترة الحرب الأهلية التي اندلعت بين السلاجقة في أعقاب وفاة السلطان السلجوقي ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م فطرد الحامية الإسلامية من الرها وسيطر على المدينة ، بينما سيطر زعيم أرمني آخر يدعى جبريل على مدينة ملطية . أما مدينة مرعش فكان يحكمها أمير أرمني آخر يسمى ثاثول أما قلعتا رعبان وكيسوم الواقعتان بين مرعش ونهر الفرات فقد انتزعهما كواسيل الأرمني . وفي قيليقية ذاتها سيطر أوشين بن هيثوم على الجبال المشرفة على المداخل الغربية لقيليقية وامتد نفوذه حتى سيطر على قلعة لامبرون الحصينة وأصبح يطل على سهل قيليقية . واستغل أوشين انشغال سلاجقة الروم بزحف الحملة الصليبية الأولى فاستولى على أجزاء من مدينة أدنة ، أما قسطنطين بن روبين الأرمني فقد سيطر على الجزء الشرقي من قيليقية . وأصبح معظم السكان في سهل قيليقية من الأرمن[٣] .

ولقد ساعد وجود الأرمن في هذه المناطق الصليبيين على المضي قدما في حملتهم الصليبية الأولى إذ يشير صاحب كتاب أعمال الفرنجة إلى أن الصليبيين عندما اقتربوا من قيصرية في كبادوقيا ، دخلوا بلاد الأرمن ، وأن إحدى المدن الخاضعة للأرمن في هذه المنطقة استلسلمت للصليبيين بسهولة مما يشير إلى ترحيب الأرمن بالصليبيين[٤] . وعندما وصل الصليبيون مرعش خرج سكانها الأرمن لاستقبالهم « فرحين غاية الفرح » وقدموا لهم مؤنا وفيرة[٥] . كما استغل الأرمن هزيمة عسكر حلب أمام الصليبيين عند انطاكية سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م فتغلب الأرمن على حارم الواقعة بين حلب وانطاكية وبلغت الجرأة بالأرمن أن تقدموا إلى حلب فهاجموا قرية تسمى تل قباسين قرب حلب وقتلوا من فيها من المسلمين[٦] . ويظهر ترحيب الأرمن الشديد بالصليبيين واضحا جليا في الكلمات والعبارات التي كتب على حواشي المخطوطات الأرمنية في تلك الفترة فالنساخ الأرمن يرحبون « بالشعب الباسل من الغرب » ويقولون إن وصوله يشير إلى أن « الرب تفقد شعبه طبقا لوعده » كما تحدثوا عما أسموه « الشعب الباسل من الفرنج الذين ... بسبب الالهام الالهي وعناية الرب الكلية استولوا على انطاكية وبيت المقدس » وكان الصليبيون أيضا سعداء جدا لملاقاتهم سكانا أصدقاء ، وفي بادىء الأمر كافأوهم فأعادوا إليهم مساعداتهم . واستمرت العلاقات الودية ما دامت المصالح لكلا الجانبين لم تتصادم[٧] .

ولقد لعب الأرمن في قيليقية دورا صليبيا خطيرا ضد المسلمين فعندما اشتدت الضائقة بالصليبيين وهم يحاصرون انطاكية ، ساعدهم الأرمن بالمؤن والذخائر ومعدات الحصار الأمر الذي ساعد في سقوط انطاكية بيد الصليبيين[٨] . وقام الأمير الأرمني ثوروس بن قسطنطين بن روبين بدور كبير في مساعدة بلدوين الثاني أمير الرها الصليبي ضد أمراء الموصل المسلمين ، ونجح ثوروس الروبيني هذا في التوسع في قيليقية فانتزع من البيزنطيين مدن سيس وعين زربة . ورغم أن الأرمن من بيت روبين تعرضوا لحملة بيزنطية سنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٧م إلا أنهم استعادوا نفوذهم من جديد ، ودمجوا اماراتهم في امارة واحدة هي امارة آل روبين وارتبطوا عن طريق المصاهرة برؤساء الأسر الصليبية الحاكمة والتي ساعدت على تقوية الروبينيين ، في حين تمكنت امارة آل روبين من الازدهار الاقتصادي عن طريق الاحتكاك مع المراكز التجارية في البحر المتوسط[٩] .

أما في الرها فان الأرمن هم السبب في قيام امارة الرها الصليبية حيث كان يحكمها أمير آخر يدعى ثوروس الكربلاط وهو الذي استدعى الأمير الصليبي بلدوين البولوني وتبناه طبقا لتقاليد الكنيسة الأرمنية . ولكن بلدوين لم يلبث أن استغل مشاعر السخط بين الرعايا الأرمن تجاه ثوروس الكربلاط بسبب استبداده وبخله ، فدبر بلدوين مؤامرة راح ضحيتها ثوروس الكربلاط سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م وانفرد بلدوين بحكم امارة الرها التي شكلت خطرا جسيما على المسلمين لأنها الامارة الصليبية الوحيدة التي كانت داخل بلاد المسلمين بعيدا عن البحر المتوسط وأصبحت تفصل بين القوى الإسلامية في بلاد الشام وآسيا الصغرى والعراق[١٠] .

ولما استولى عماد الدين زنكي على الرها سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م عامل السكان النصارى من الأرمن والسريان واليعاقبة معاملة طيبة ولم يتعرض سوى للفرسان الصليبيين[١١] . وكان هدف عمان الدين من هذه السياسة استمالة النصارى الشرقيين إلى جانبه ، غير أن السكان الأرمن لم يحفظوا لعماد الدين حسن صنيعه معهم ، فقد انتهزوا فرصة وفاة عماد الدين ودبروا مؤامرة لاعادة

أمير الرها السابق جوسلين الثاني إليها (٥٢٦ ــ ٥٣٩هـ/ ١١٣١ ــ ١١٤٤م) ، وكان الأرمن يعتبرون جوسلين نصف أرمني لأن أمه كانت أرمنية ، لذلك راسلوه واستدعوه إلى الرها فتسلل إليها مع أتباعه ودخلها سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م ولكن الحامية الاسلامية داخل قلعة الرها ظلت صامدة فأرسلت على عجل تستدعي نور الدين ، فهب مسرعا إلى الرها وأصبح جوسلين وأتباعه محاصرين من الداخل بحامية القلعة ومن الخارج بقوات نور الدين ، ولكن جوسلين استطاع الفرار بعد أن أصابته الجراح ، فدخل نور الدين إلى الرها ونكل بالأرمن وطردهم جميعا خارج الرها ، جزاء خيانتهم للمسلمين[١٢] .

والمعروف أن قيليقية تشكل خطرا شديدا على المسلمين نظرا لطبيعتها الجغرافية إذ يصعب غزوها من طريق بلاد الشام[١٣] . كما كان في مقدور القوى المعادية التي تسيطر على قيليقية شن الغارات على أعمال حلب والعودة عبر بوابات قيليقية والتحصن بمعاقلها الجبلية . ولما كان نور الدين محمود يعرف هذه الحقيقة جيدا لجأ إلى سياسة التفريق بين الأرمن ، بل وشق الجبهة النصرانية بكاملها ، والتي تضم الصليبيين والأرمن البيزنطيين . فعمد إلى استمالة أحد أمراء الأرمن وهو مليح بن ليون الأرمني من ال روبين . وفي ذلك يقول ابن الأثير : « إن نور الدين استخدم مليحا المذكور ، وأقطعه اقطاعا سنيا ، وكان ملازم الخدمة لنور الدين ومشاهدا لحروبه مع الفرنج ، ومباشرا لها ، وكان هذا من جيد الرأي وصائبه ، فان نور الدين لما قيل له في معنى استخدامه واعطائه الاقطاع من بلاد الإسلام قال : أستعين به على قتال أهل ملته ، وأريح طائفة من عسكري تكون بازائه لتمنعه من الغارة على البلاد المجاورة له وكان مليح أيضا يتقوى بنور الدين على من يجاوره من الأرمن والروم »[١٤] .

وقد انتمى مليح في بداية أمره إلى طائفة الداوية[١٥] ، الأمر الذي يشير إلى أنه تحول عن النصرانية على المذهب الأرمني واعتنق المذهب الكاثوليكي . ولايظهر لمليح دور يذكر في أوائل عهد أخيه ثوروس الثاني . إذ يبدو أن انتماء مليح إلى الداوية صرفه عن مساعدة شقيقه ثوروس الذي فر من أسره في

القسطنطينية سنة ٥٤٠هـ/ ١٠٤٥م وعاد إلى قيليقية ونجح في جمع الأرمن حوله وسيطر على الجزء الشرقي من قيليقية بالاضافة إلى العديد من مدن قيليقية . واتخذ من عين زربة مقرا لامارته ثم تحالف مع ابن عمته الكونت جوسلين الثاني حاكم الرها السابق ، وتزوج ثوروس أيضا من ابنة الأمير الصليبي سيمون صاحب رعبان وأحد أتباع جوسلين[١٦] .

وتبدأ علاقة نور الدين بمليح بن ليون ــ شقيق ثوروس ــ بعد انتصار نور الدين على القوات النصرانية المتحدة في معركة حارم غربي حلب سنة ٥٥٩/ ١١٦٤م والتي تكونت من قوات بيزنطية وصليبية وأرمنية ، وفي تلك المعركة وقع في أسر نور الدين من كبار زعماء الصليبيين بوهمند الثالث أمير انطاكية ، وريموند الثالث أمير طرابلس ، وهيولوزجنان وجوسلين . ووقع في الأسر قائد القوات البيزنطية قسطنطين كولومان . أما القوات الأرمنية فقد كان يقودها ثوروس وشقيقه مليح ، مليح ، ولكنهما نجحا في الفرار منهزمين إلى قيليقية[١٧] . ثم حدث شقاق بين ثوروس ومليح لم تذكر المصادر سببه ، والراجح أنه بسبب طمع ثوروس في الانفراد بعرش الأرمن فطرد ثوروس أخاه مليحا فلجأ الأخير إلى نور الدين الذي أقطعه قلعة خروص من أعمال حلب[١٨] . وقد ذكر بعض المؤرخين الغربيين المحدثين أن مليحا عندما لجأ إلى نور الدين صار مسلما ، ولذلك وصفوه بالمرتد[١٩] . على أنه لم يرد في المصادر المعاصرة للحوادث ما يشير إلى هذا الرأي ، فالمؤرخ الصليبي وليم الصوري عندما عرض للحديث عن مليح وتحالفه مع نور الدين وصفه بأقذع أنواع الصفات ، مثل الخسيس والشرير ، والمسيء للنصرانية دون أن يذكر أنه اعتنق الإسلام[٢٠] . وقد رأينا أن نور الدين ذكر أنه يستعين به على أهل ملته ، وهذا يثبت أنه لم يعتنق الإسلام .

توفي الأمير الأرمني القوي ثوروس سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٨م فانتهز نور الدين تلك الفرصة لشق الجبهة النصرانية المتحالفة ضد المسلمين ، والمكونة من الدولة البيزنطية والأرمن في قيليقية والصليبيين في الشام . فاستجاب لطلب مليح مساعدته بفرقة من الفرسان لغزو قيليقية للاستيلاء على عرش الأرمن ، وانتزاع

الميراث لنفسه . وكان نبلاء الأرمن في قيليقية قد عينوا روبين الثاني بن ثوروس أميرا عليهم . ولما كان روبين لا يزال طفلا فقد استدعى النبلاء رجلا لاتيني الأصل يدعى توماس (Tomas) . وكان توماس ابن أخت ثوروس ومليح ، وذلك ليتولى الوصاية على ابن خاله روبين الثاني ، على أن توماس افتقر إلى المقدرة والادراك و لم يستطع أن يكيف نفسه بسرعة تجاه أولئك النبلاء الذين استدعوه بسبب أصله اللاتيني وعقيدته الكاثوليكية[٢١] .

وقد ذكر وليم الصوري أنه تحددت شروط مرضية لنور الدين مقابل مساعدته لمليح[٢٢] ، و لم يحدد وليم الصوري تلك الشروط . والراجح أنها تضمنت القضاء على النفوذ البيزنطي والصليبي في قيليقية ، نظراً لأن قيليقية هي نقطة الاتصال البرية الوحيدة بين الدولة البيزنطية والامارات الصليبية في بلاد الشام .

سار مليح من حلب بفرسان نور الدين وغزا قيليقية سنة ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م وأوقع بأعدائه فقتلهم وأسر الكثيرين ، و لم يجد النبلاء الأرمن بدا من الاذعان وتسليم الامارة لمليح ، وفر القائم بالوصاية توماس إلى انطاكية بينما لجأ روبين الثاني بن ثوروس إلى قلعة الروم التي كانت مقرا لبطركية الأرمن واحتمى برئيس الكنيسة الأرمنية ولكن رجال شرطة مليح تعقبوه وقتلوه سريعا[٢٣] .

وبدأ نور الدين يجني ثمار استخدامه لمليح الذي شرع يضايق الصليبيين وينكل بهم ، ففي سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧١م جاءت جملة صليبية صغيرة بقيادة الأمير الفرنسي ستيفن (Stephen) كونت سانكير (Sancerre) ، وابن دوق شاميانيا ثيبولد الثاني (Theobold) . وقد هبط الأمير الصليبي بحرا بفرسانه وزار بيت المقدس ثم استقر رأيه على العودة إلى بلاده برا ، فسار إلى انطاكية . وبعد أن حصل على الأذن من سلطان سلاجقة الروم للمرور عبر بلاده دخل قيليقية ، وعند المصيصة نصب له مليح كمينا وانقض عليه وأسره مع أتباعه وغنم جميع كنوزه الثمينة التي جلبها معه . وبعد توسلات مذلة بذلها ستيفن لمليح اطلق الأخير سراحه مع بعض مرافقيه ، و لم يعد إليه سوى فرسه الخاص فوصل إلى القسطنطينية بعد أن تعرض للاهانة والمذلة مما كان له أسوأ الأثر في نفوس الصليبيين[٢٤] .

وبهذا الاجراء اتضح للصليبيين أنه لم يعد في مقدورهم الانتقال بحرية عبر البر بين بلاد الشام والدولة البيزنطية .

وتقدم مليح في صحبة فرسان نور الدين إلى جبال الأمانوس الواقعة إلى الشرق من قيليقية والتي تشرف على انطاكية من الشمال ، وانتزع من فرسان الداوية جميع القلاع التي بأيديهم في هذه المناطق والواقعة عند مداخل هذه الجبال وطردهم إلى خارج قيليقية[٢٥] ، وقضى مليح بذلك العمل على النفوذ الصليبي داخل قيليقية قضاءا مبرماً .

وبعد الانتهاء من الصليبيين شرع مليح يتوسع في قيليقية على حساب البيزنطيين فاتجه إلى غرب قيليقية حاصر قلعة لامبرون الحصينة والتي كانت خاضعة للأمير الأرمني هيثوم الذي يدين بالتبعية للامبراطور البيزنطي مانويل كومنين . وقد اتخذ مليح من تطليق هيثوم لزوجته ــ التي كانت ابنة أخي مليح ــ ذريعة لحصار لامبرون حتى لا يثير الأرمن ضده . ولكن حصانة لا مبرون حالت دون سقوطها بيد مليح فتركها على حالها[٢٦] . وسار لانتزاع مدن قيليقية الثلاث الكبرى التي بيد البيزنطيين وهي مدن أدنة والمصيصة وطرسوس ، وتمكن مليح بمساعدة قوات نور الدين من الاستيلاء على تلك المدن وضمها إلى امارته وذلك في سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م[٢٧] .

ولم يسلّم الامبراطور البيزنطي مانويل كومنين بسقوط مدن قيليقية الكبرى في يد مليح لذلك جهز جيشا كثيفا وسيره إلى قيليقية سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م بعد أن جعل قيادته لبعض كبار البطارقة من أقاربه « فلقيهم مليح ومعه طائفة من عسكر نور الدين فقاتلهم ، وصدقهم القتال ، وصابرهم ، فانهزمت الروم ، وكثر فيهم القتل والأسر ، وقويت شوكة مليح ، وانقطع أمل الروم من تلك البلاد »[٢٨] . وكان ضمن الأسرى قنسطنطين كولومان (Constantine Coloman) الذي يعتبر من أكفأ القادة البيزنطيين في ذلك الحين[٢٩] . « وأرسل مليح إلى نور الدين كثيرا من غنائمهم ومن الأسرى ثلاثين رجلا من مشهوريهم وأعيانهم . فسير نور الدين بعض ذلك إلى الخليفة المستضيء بأمر الله (٥٦٦ ــ ٥٧٥هـ) وكتب يعتد بهذا الفتح لأن بعض جنده فعلوه »[٣٠] . والحق أن

اعتداد نور الدين وفرحه بهذا الفتح ليس لأن بعض جنوده فعلوه فحسب ــ كما يقول ابن الأثير ــ بل بسبب ادراك نور الدين لمغزى وأثر هذا النصر ، إذ أن تلك المعركة الحاسمة قذفت بالدولة البيزنطية بعيدا خارج قيليقية ، الأمر الذي يتيح الحرية لنور الدين ليجاهد الامارات الصليبية ولا سيما امارة انطاكية دون أن يخشى جانب الدولة البيزنطية .

ولما سيطر مليخ على قلاع الأمانوس أصبح يشرف على امارة انطاكية الصليبية من الشمال ويمكنه تهديدها إذا ما أوعز إليه نور الدين بذلك . وبسبب هذا التهديد فقد زحف بوهمند الثالث أمير انطاكية ومعه بعض الأمراء الصليبيين المجاورين له ضد مليح في ربيع عام ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م ، ولكنهم فشلوا في التغلب عليه[٣١] . الأمر الذي أغرى مليحا بمهاجمة قلعة بغراس التابعة للداوية ، وهي آخر قلعة ظلت بيد الداوية إلى الشمال من انطاكية ، وعند المدخل الجنوبي لقيليقية من جهة انطاكية[٣٢] . ولم يستطع بوهمند الثالث الوقوف في وجه مليح فاستنجد بملك بيت المقدس الصليبي عموري الأول ، فنهض الأخير بقواته لمساعدة انطاكية ، وحاول عموري بعد وصوله اجراء الصلح بين مليح والصليبيين فأرسل وفداً إلى مليح طالبا إليه أن يوافق على الاجتماع به لبحث المشكلة وظل عموري يلح على مليح للاجتماع به بمفرده ، ولكن مليحا تملص من إعطاء إجابة محددة وراوغ كثيرا رغم أنه تظاهر بأنه سعيد برسالة الملك الصليبي[٣٣] . والراجح أن مليحا تملص وراوغ في اجابته لكسب الوقت حتى يتمكن الاتصال بنور الدين لاتخاذ خطة مشتركة ازاء تدخل الملك الصليبي . ولما أدرك عموري الأول أن مليحا يراوغ لكسب الوقت حشد قواته وجميع القوات النصرانية في تلك المنطقة ودخل إلى قيليقية عبر السهل الساحلي حتى يتحاشى الطرق الصعبة عبر جبال قيليقية ، ثم دخل إلى سهل قيليقية ، وأحرقت عساكره الحبوب والمحاصيل الزراعية ، وحاولوا أن يقتحموا القلاع الواقعة على طريقهم دون جدوى . وقد خشي نور الدين أن ينجح عموري بقواته الصليبية في هزيمة حليفه مليح ومن ثمة السيطرة على قيليقية فنهض بقواته وأغذ السير جنوبا وألقى الحصار على قلعة الكرك[٣٤] التابعة لمملكة بيت المقدس الصليبية ،

وقد أرسل أمراء المملكة الصليبية إلى ملكهم يخبرونه بحصار نور الدين للكرك . وقد سببت هذا الأنباء للملك الصليبي « كربا خطيرا » كما يقول وليم الصوري فرحل مسرعا بقواته خوفا على مملكته من السقوط بيد نور الدين . وكان هدف نور الدين من هذا الهجوم المضلل على الكرك هو صرف نظر القوات الصليبية عن مليح في قيليقية بدليل أن نور الدين عندما سمع بوصول عموري إلى بيت المقدس ترك حصار الكرك وقفل عائدا إلى بلاده[٣٥] . وقد نتج عن سياسة نور الدين هذه تأمين الجناح الشمالي للجبهة الإسلامية المتحدة في مواجهة خطر البيزنطيين والأرمن .

وظل مليح حليفا مخلصا لنور الدين حتى وفاة الأخير سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م . وبعد وفاة نور الدين لم يعد النبلاء الأرمن يخشون نور الدين فثاروا على مليح وقتلوه في السنة التالية ٥٧٠هـ/ ١١٧٥م[٣٦] .

الهوامـش

(1) Lang, David Marshall: Armenia Cradle of Civilization, London, 1978, P. 200.

(2) Ibid, P. 200; Nersessian, Sirarpie: The Kingdom of Cilician Armenia, in Setton, A History of the Crusades, Vol II, the Later Crusades, London, 1969, P. 631; Vasiliev, A. A.: History of the Byzantine Empire, 2vols, Madison, 1976, 1978, P. 415.

(3) Runciman, Steven: A History of the Crusades, 3 vols, Cambridge, 1968. Vol I, PP, 195-197; The Cambridge Medieval History, Vol IV, The Byzantine Empire, Part I, Byzantium and its Neighbours, London, 1979. PP, 628-629.

ابن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ، تحقيق يحيى عبارة جـ٣ القسم الأول ،دمشق ١٩٧٨ ص٩٤ .

(٤) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة حسن حبشي ، القاهرة ١٩٥٨م ص٤٥ ــ ٤٦ .

(٥) المصدر نفسه ص٤٨ .

(٦) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٢ ص١٣٢ .

(7) Nersessian: Op.cit, p, 634.

(٨) سعيد عاشور : سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى ، في كتاب : بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، بيروت ١٩٧٧ ، ص٢٣٤ .

(9) Lang: Op.cit, P, 202 .

(10) Runciman: Op.cit, Vol I, PP, 202-208,

سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ١ ، القاهرة ١٩٨٢م ، ص١٨١ ــ ١٨٥ .

(١١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ١١ ، بيروت ١٣٨٦هـ ص٩٨ ــ ١٠٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، جـ١ ، تحقيق جمال الدين الشيال القاهرة ، ١٩٨٣م . ص٩٣ ــ ٩٤ .

(12) William of Tyre: A History of deeds done beyond the sea.Translated and annotated by amily Babcock and A. C. Krey, New York, 1976, PP. 159-160,

ــ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ٢ ، القاهرة ١٩٧٦م ص٥٩٧ ــ ٦٠٠ .

(١٣) وقد أدرك ابن الأثير هذه الحقيقة فهو يصف بلاد ابن ليون قائلا : « فليس اليه طريق ، لأن جميع بلاده لا طريق إليها إلا من جبال وعرة ، ومضايق صعبة ، فلا يقدر غيره على الدخول إليها ، لاسيما من ناحية حلب فان الطريق فيها متعذر جدا » انظر الكامل جـ١٢ ص٢٣٩ .

(١٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ١١ ص٣٨٧ .

(15) William of Tyre: Op.cit, Vol II, P, 387; The Cambridge Medieval History, Vol IV, Part I, P, 630.

والداوية : وهي طائفة فرسان الهيكل (المعبد) ، وقد نشأت على أساس حربي منذ سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م ، وقد أسسها فارس فرنسي يدعى هيو باينز (Hugh de Payens) الذي طلب من ملك بيت المقدس الصليبي بلدوين الأول أن يأذن له باتخاذ ساحة المسجد الأقصى مقرا له ولطائفته فأجابه إلى طلبه . وعملت هذه الطائفة في بداية عهدها على حراسة الطريق بين يافا وبيت المقدس وتطورت حتى أصبحت تابعة للبابوية مباشرة . و لم تلبث طائفة الداوية أن سيطرت على الكثير من القلاع والحصون في بلاد الشام وقيليقية وأسهمت في جميع الحملات الصليبية والاعتداءات التي قام بها الصليبيون على بلاد المسلمين ، وأصبحت الداوية مع طائفة الاستبارية تشكلان القوات الضاربة للصليبيين ، وقد اتخذ فرسان الداوية الصليب الأحمر شعارا لهم ، ومما ساعد على ازدياد قوة الداوية أن البابوية في أوربا أوقفت على هذه الطائفة ضياع وممتلكات كثيرة في غرب أوربا ، مما جعل من هذه الطائفة مع الاسبتارية أقوى دعامتين للوجود الصليبي في بلاد الشام .

انظر : William of Tyre: Op.cit, Vol I, PP, 524; Runciman: Op.cit, Vol II, PP, 157-158,

(16) Nersessian: Op.cit, P, 638.

ورعبان : مدينة بالثغور بين حلب وسميساط ، انظر ياقوت : معجم البلدان .

(17) William of Tyre: Op.cit, Vol, II, PP, 306-308,

ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، تحقيق عبد القادر طليمات ، القاهرة ١٩٦٣م ص١٢٢ ــ ١٢٥ .

(18) Nersessian: Op.cit, P, 642; Runciman: Op.cit, Vol II, P, 389; Gibb, Hamilton, A. R: The Career of Nur-ad-Din in Setton, A History of the Crusades, Vol I, London, 1969, P, 527.

(19) Runciman: Op.cit, Vol II, P, 389; The Cambridge Medieval History, Vol IV, Part I, P, 630.

(20) William of Tyre: Op.cit, Voll, PP, 386-387.

وهناك تصريح من وليم الصوري بأنه ظ ل نصرانيا إذ يذكر أن الأمراء الصليبيين والأرمن تحرجوا في البداية من محاربة مليح لأن تلك الحرب كما يقول « بدت شاذة وخطرة ضد واحد معترف به على نفس الإيمان » المصدر نفسه P 387 .

(21) William of Tyre: Op.cit, Vol II, P, 386; Nersessian: Op.cit, P, 642; Runciman: Op.cit, Vol II, P, 389.

(22) William of Tyre: Op.cit, Vol II, P, 386.

(23) William of Tyre: Op.cit, Vol II, PP, 386-387; Nersessian: Op.cit, P, 642; Gibb: Op.cit, P, 527; The Cambridge Medieval History, Vol IV, Part, I, P, 630.

(24) William of Tyre: Op.cit, Vol II, P, 384; Nersessian: Op.cit, P, 642.

(25) William of Tyre: Op.cit, Vol II, P, 387; Nersessian: Op.cit, P, 642; Gibb: Op.cit, P, 527.

(26) Nersessian: Op.cit, P, 642.

(٢٧) ابن الأثير : الكامل جـ١١ ص٣٨٨ ، ابن العديم : زبد الحلب من تاريخ حلب ، جـ٢ ، تحقيق سامي الدهان ، دمشق ١٩٥٤م ، ص٣٣٧ .

(٢٨) ابن الأثير : الكامل ، جـ١١ ص٣٨٨ .

(29) Nersessian: Op.cit, P, 642.

(٣٠) ابن الأثير : الكامل ، جـ١١ ص٣٨٨ .

(31) Nersessian: Op.cit, PP, 642-643.

(32) Runciman: Op.cit, Voll II, P, 389.

(33) William of Tyre: Op.cit, Vol II, P, 387.

(٣٤) الكرك : بفتح أوله وثانيه ، كلمة عجمية ، وهو اسم لقلعة حصينة شديدة المناعة تقع في جنوب بلاد الشام من نواحي البلقاء بين ميناء ايلة على البحر الأحمر وبيت المقدس ، وللكرك ربض ، وهو وربضه على سن جبل عال تحيط به أودية ما خلا جهة الربض ، وبين الربض والقلعة خندق عميق ، طوله ستون ذراعا وعمقه نحو ذلك ، ويدخل إلى فضاء القلعة من حنية منحوتة في الجبل طويلة عليها باب وحراسة كان في بداية أمره ديرا للنصارى فقام الرهبان ببنائه وحصنوه ، وزادوا في توسعته وتحصينه إلى أن غدا معقلا حصينا ، ثم استدعوا إليه طائفة من الفرنج زمن ملك بيت المقدس الصليبي فولك الانجوى : (١١٣١ ــ ١١٤٤م) وأسكنوهم فيه وزاد الملك الصليبي في تحصينه الأمر الذي أجبر سكان المنطقة على الخضوع للصليبيين ، وأصبحت قلعة الكرك ــ تحت حكم الصليبيين ــ تهدد طرق القوافل والتجارة بين مصر والشام والحجاز .

انظر : عز الدين بن شداد : الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، قسم لبنان والأردن وفلسطين ، تحقيق سامي الدهان ، ص٦٩ ــ ٧٠ ؛ ياقوت : معجم البلدان ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ص١٥٥؛

Stevenson W. B.: The Crusaders in the East, Cambridge 1907, P, 146.

(35) William of Tyre: Op.cit, Vol II, PP, 387-388.

وانظر أيضا : Nersessian: Op.cit, P, 643.

(36) Nersessian: Op.cit, P, 643.

مصـادر ومراجـع البحـث

أولا : المصادر والمراجع العربية :

ـ ابن الأثير (علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني ، ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) .

١ ـ الكامل في التاريخ جـ١١ ـ ١٢ بيروت ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م .

٢ ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات القاهرة ، ١٩٦٣م .

ـ ابن شداد (عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم الحلبي ، ت٦٨٤هـ) الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تاريخ لبنان والأردن وفلسطين ، تحقيق سامي الدهان ، دمشق ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م . والجزء الثالث تحقيق يحيى عبارة ، دمشق ، دمشق ١٩٧٨م .

ـ ابن العديم (الصاحب كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م) .
زبدة الحلب من تاريخ حلب ، جـ٢ تحقيق سامي الدهان ، دمشق ١٩٥٤م .

ـ ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م)
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، جـ١ تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٣م .

ـ القلقشندي : (أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)
صبح الأعشى في صناعة الانشا ١٩١٩ ـ ١٩٢٢م .

ـ ياقوت الحموي (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي ، ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) معجم البلدان ، بيروت ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م .

ـــ مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة حسن حبشي ، القاهرة ١٩٥٨م .

ـــ سعيد عبد الفتاح عاشور ،

١ ـــ الحركة الصليبية ، جـ١ القاهرة ١٩٨٢م ، جـ٢ القاهرة ، ١٩٧٦م .

٢ ـــ سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى ، في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، بيروت ١٩٧٧م .

ثانيا : المصادر والمراجع الأجنبية :

__ The Cambridge Medieval History: Vol Iv, (The Byzantine Empire, Part I, Byzantium and its Neighbous) Cambridge, 1966.

__ Gibb, Hamilton A. R., The Career of Nur -ad- Din, in setton, A History of the Crusades, Vol I the First hundred years, London, 1969.

__ Lang, David Marshal, Armenia Cradle of Civilization, London, 1978.

__ Nersessian, Sirarpie, The Kingdom of Cilician Armenia, in Setton, A History of the Crusades, Vol II, The Later Crusades, London, 1969.

__ Runciman, Steven, A History of the Crusades, 3 Vols, Cambridge 1968.

__ Stevenson, W. B., The Crusaders in the East, Cambridge 1907.

__ Vasiliev, A. A., History of the Byzantine Empire, 2 Vols, Madison, 1976, 1978.

__ William of Tyre, A History of Deeds Beyond the Sea, translated and annotated by Emily Babcock and A. C. Krey, New York, 1976.

مطبعة مكتب التربية العربي لدول الخليج
الرياض ـ ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م